الفصل السادس

فى مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات ليس إلا بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف

هذه الدعوة مركبة من ثلاثة أمور الأمر الأول أن العلوم كانت حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع. الأمر الثانى أن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة وزال منها معنى الاحتراف والصنعة. الأمر الثالث كونها كمالات وطاعات وبيان ذلك يفتقر إلى مقدمتين - المقدمة الأولى أن هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع وأحكامها باقية بقاء الدهر ثم إن الأحكام كلها متلقاة من الله تعالى ولا مدخل للعقل فى إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما، ولذلك قيل فى حد الحكم الشرعى خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير فقيل خطاب الله لما أن السنة والإجماع والقياس ترجع إليه بالآخرة. والكتاب والسنة والحكم الشرعى مفتقر إلى العلوم بأسرها - وبيانه أنه بالنظر إلى المفرد الذى يستدل به وصحته فى حالة إفراده يفتقر إلى علم الصرف وأن النظر فى صحة التركيب يفتقر إلى علم النحو وفى تطبيق اللفظ على مدلوله يفتقر إلى علم اللغة وفى إظهاره وإضماره والتفاته وتقديمه وتأخيره ونحوها مما يرجع إلى مطابقة اللفظ لمقتضى الحال إلى علم المعانى وفى حقيقته ومجازه وكنايته واستعارته ونحوها مما يرجع إلى إيراد العلمين إلى علم البديع وبالنظر فى خاصه وعامه ومطلقه ومقيده ومجمله ونحو ذلك إلى المعنى الواحد فى طرق مختلفة فى وضوح الدلالة إلى علم البيان وبالنظر إلى توابع هذين طائفة من علم أصول الفقه وفى مواقع القرآن إلى أسباب النزول وفى استيضاح معانيه إلى علم التفسير وفى نزوله على حروف متعددة إلى علم القراءات وفى الاستدلال به وترتيب الأدلة إلى علم المنطق والجدل وآداب البحث وفى

الأحكام المستفادة منه وبواسطته إلى الفقه وفى استنباط الفقه إلى أصول الفقه – وإن النظر فى السنة يستلزم علم رواية السنة وحفظها وعلم الحديث والناسخ والمنسوخ وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم ومشتبه أنسابهم وجرحهم وتعديلهم ووفاتهم والأخبار والقصص – وأن النظر فى الشارع يفتقر إلى علم الكلام ثم إن العلوم بعضها مربوط ببعض ومتعلق به إما على سبيل الاستلزام أو على سبيل الاستمداد وهذه العلوم المذكورة تستلزم جملة من علوم الحكماء والأوائل ولو بواسطة أو وسائط كاستلزام الفقه بواسطة الفرائض والإقرارات المجهولة علم الحساب وهو الأرثماطيقى وعلم الجبر والمقابلة وبواسطة اختلاف أحكام الوصية وما فى معناها بالمرض المخوف وغيره وإباحة التيمم بالمرض ونحوه إلى علم الطب وكاستلزام علم الكلام للطبيعة والرياضة والمنطق وكاستلزام تعيين معرفة القبلة على كل واحد فى رأى الرافعى أن على مريد السفر فى رأى النووى وهو من الفقه معرفة طائفة من الهيئة وكذلك معرفة دخول الوقت واستلزام الاستشهاد بالشعر فى النحو والتفسير علم العروض وعلى هذا القياس قس تجد العلوم مرتبطة بعضها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد – المقدمة الثانية أن الحفاظ للقرآن بكماله فى عصره ﷺ معاذ بن جبل وأبو زيد سعيد بن عمر الأنصارى وأبو الدرداء عويمر وزيد بن ثابت وفى قول وعثمان بن عفان وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصارى. وأصحاب الإفتاء فى عصره ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن ابن عوف وأبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى. ثم انتهت أصول العلم إلى عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس فأخذ عن ابن مسعود ستة علقمة والأسود وعبيدة والحرث بن قيس ومسروق وعمرو ابن شرحبيل. وأخذ عن زيد بن ثابت أحد عشر رجلا ممن كان يتبع رأيه

ويقتدى بقوله قبيصة بن ذؤيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وسعيد بن المسيب وأبان بن عثمان وسليمان بن يسار - وأخذ عن ابن عباس ستة سعيد بن جبير وعطاء ابن أبى رباح وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وطاووس هكذا رواه أبو بكر الخطيب بإسناده عن على المدينى وروى الحاكم أبو عبد الله عن أبى العباس الأصم عن العباس لدورى قال انتهى علم الصحابة إلى ستة عمر وعلى وابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت انتهى - وانتهت أصول الرواية إلى ستة أبى هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وأبى سعيد الخدرى وعائشة. وانتهت أصول الأخبار والقصص إلى ستة عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه وطاووس اليمانى ومحمد بن إسحق ومحمد بن عمر الواقدى - وانتهت صناعة التفسير إلى ستة عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك والسدى هكذا ذكر هذا كله جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى فى كتابه المسمى تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ثم صار الأمر من بعده ﷺ إلى أبى بكر الصديق واسمه بد الله بن عثمان بويع له فى اليوم الذى توفى فيه رسول الله ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة. ثم بويع له البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وتوفى لثمان بقين من جمادى الآخرى سنة ثلاث عشرة، فكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال. ثم استخلف عمر بن الخطاب يوم وفاة أبى بكر بنصه عليه ثم قتل لأربع بقين ن ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. ثم استخلف عثمان بن عفان أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثمان عشر خلت من ذى الحجة سنة خمس

وثلاثين، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرًا وأيامًا. ثم استخلف على بن أبى طالب وقتل فى رمضان سنة أربعين فى يوم الجمعة وكانت خلافته أربع سنين وتسع أشهر وأيامًا، ثم بايع الناس الحسن بن على يوم موته فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يومًا، ويقال أربعة أشهر، ثم كره سفك الدماء فتخلى عن الأمر لمعاوية وانخلع وبايعه فى جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين فانتقل الأمر إلى بنى أمية وخلص لهم ثنتين وثمانين سنة ألف شهر وعدتهم أربعة عشر رجلا: أولهم معاوية وخلافته سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ومدة ولايته نحو من ثمان سنين، وبعد معاوية يزيد بن معاوية وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرين، ثم بويع لابنه معاوية بن يزيد فمكث أربعين ليلة ثم مات وقيل خلع نفسه لصعوبة الأمر عليه، ثم بويع لعبد الله بن الزبير بمكة لسبع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام وذلك فى المنتصف من ذى القعدة سنة أربع وستين ثم مات فى رمضان سنة ٦٥، فكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية وعشرين يومًا، فقام مقامه عبد الملك ابنه، وجهز العساكر مع الحجاج بن يوسف لقتال ابن الزبير وقتل ابن الزبير فى المسجد الحرام بمكة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر. ثم استخلف أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفى سنة ٩٩ فكانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر. ثم استخلف عمر بن عبد العزيز وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام. ثم استخلف يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته أربع سنين وشهرًا. ثم استخلف أخاه هشام بن عبد الملك وكانت ولايته تسعة عشر عامًا وسبعة أشهر وعشرة أيام. ثم استخلف

الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته سنة وشهرين. ثم استخلف يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ثم بويع أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك، ثم مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم وقتل سنة ١٣٢ هجرية. ثم انتقل الأمر إلى بنى العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ فتولى أبو العباس السفاح واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى ربيع الأول وقيل الآخرة سنة ١٣٢ وتوفى فى ذى الحجة سنة ١٣٦ فكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر. ثم تولى بعده أخوه المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد وكان أكبر سنًا منه وحج فتوفى لسبع خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨، فكانت ولايته اثنين وعشرين سنة إلا شهرًا. ثم ولى المهدى بن محمد بن عبد الله بمكة وتوفى لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ وكانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يومًا. ثم ولى ابنه الهادى موسى بن محمد وكانت خلافته أربعة عشر شهرًا وإحدى وعشرين يومًا. ثم ولى بعده أخوه الرشيد أبو جعفر هارون بن محمد فكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرًا وستة عشر يومًا. ثم ولى بعده ابنه الأمين أبو عبد الله محمد بن هارون وقتل فى المحرم سنة ١٩٨ وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأربعة وعشرين يومًا. ثم ولى أخوه المأمون عبد الله بن هارون فى المحرم ومات ببلاد الروم لثمان خلون من رجب سنة ٢١٨ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا. ثم تتابع العباسيون واحدًا واحدًا إلى أن ختموا بالمستعصم أبى أحمد عبد الله ابن المنتصر بالله أبى جعفر منصور وكانت عدة خلفاء بنى العباس سبعة وثلاثين خليفة وجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ولم تكن أيدى بنى العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار فقد خرج عن بنى العباس بلاد المغرب وإنما ذكرت هذه المقدمة بطولها لتعرف ترتيب الدول وسيتضح لك ذلك بإذن الله تعالى - إذا

تقرر ذلك فاعلم أن العلوم الإسلامية لم تكن مدونة ولكن اقتضتها الشريعة اقتضاء واستلزمها لزومًا وإفاضتها إفاضة كما تقرر فى المقدمة الأولى وتلقت الصحابة أصولها من حضرته ﷺ ومشاهدتهم الوحى وتفقهم بأسباب النزول وما أفاضته عليهم أنوار النبوة ثم ثابروا على الحق وتساءلوا وتناظروا واجتهدوا وتراجعوا عند اختلافهم إلى من عنده مزيد علم بالمختلف فيه وتواصوا وتعاونوا وعلى إمضاء الشريعة وتشييعها وإلزام الناس بها وإكرام حملتها وملوك الناس علماؤهم والعلماء الكبار قليلون كما مر فى المقدمة الثانية على ما هو العادة فى الأمور المبتدأة كيف تكون فى مبدئها وأولها قليلة كما مر فى المقدمة الثانية على ما هو العادة فى الأمور المبتدأة كيف تكون فى مبدئتها وأولها قليلة وما ظنك بالشىء المحتاج إليه مع قلته ويلزم من ذلك كله وفور الداعية فى تحصيل العلم ومزيد الاعتناء به والرغبة فيه ولذلك كانت الفضائل والكمالات والعلوم تأخذ فى الازدياد والنمو لنفاق أصحابها ولبقاء أنوار النبوة غضة طرية بين الناس وكلما ازدادت الشريعة تمهيدًا ونشرًا ازدادت الصحابة وحاشاهم من تعلق همهم بالدنيا سيادة ويسرًا فلقد كثر المال فى خلافة عثمان ابن عفان كثرة بالغة لم يكثر قبلها فى خلافة من تقدمه حتى جاء نصيب الفارس فى غزوة إفريقية ثلاثة آلاف دينار أو عشرين ألف دينار فأطلقها كلها عثمان رضى الله عنه فى يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان. ثم صارت الخلافة من الخلفاء الأربعة والحسن رضى الله عنهم إلى الأمويين فالعباسيين على ما تقدم فى المقدمة الثانية وهم ما بين صحابى وتابعى ومدل بنسبته إلى النبى ﷺ والشريعة التى العلوم خدمتها شريعة قريبهم وصاحبهم وسيادتهم وفخرهم واستيلاؤهم على الممالك به ﷺ وبشريعته المستلزمة للعلوم على ما مر فى المقدمة الأولى فكيف لا تأخذ العلوم فى الانتشار والملوك والأمراء

والأعيان والقضاء والوزراء هم أهل العلم والفضل والعقل أو المدحين الكمل وشهرتهم وذكر أسمائهم فى غالب خطب كتب الأقدمين تغنى عن عدم بالأسماء فقلّ أن يخلو كتاب من كتب العلماء الأقدمين خصوصًا فى العلوم العقلية والأدبية إلا ويذكر فيه أن الباعث على تدوينه وزير أو قاض أو أمير أو من فى معناهم ويلزم من ذلك قوة داعية التعلم وتوفر الإرادة له لما أن المجانسة واتحاد المقاصد والتعاون على مقصد واحد واستمداد العلماء بعضهم من بعض وزيادة العلم ورسوخه بالبحث فيه والمذاكرة له كل ذلك مقتض للألفة والمحبة والاختلاط والعناية وألفة الملوك والأعيان ومحبتهم والاختلاط بهم يقتضى تأليفهم ومن يحبونه إلى مقاصده ومآربه ولذلك بنيت المدارس بألوف الدنانير لجنس العلماء أو لواحد منهم بالقصد الأول ولجنسهم بالقصد الثانى واتسع الحال بالعلماء أنفسهم حتى بنوا هم لبنى نوعهم مدارس كثيرة وكتب التاريخ طافحة بهذا. ولذلك أيضًا بذلت الألوف فى الإرشاد إلى تصحيح كلمة أو مساعدة على مقصد علمى كحكاية النضر بن شميل مع المأمون وأنه أمر له بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل على أن أرشده إلى أن السداد الذى بمعنى البغة وسد الثلمة بكسر السين لا بفتحها، وأن الفضل زاده من عند نفسه لذلك ثلاثين ألف درهم فتم له ثمانون ألف درهم. وكحكاية أبى عثمان المازنى وإحضار الواثق إياه من البصرة ليسأله عن نصب رجل أو رفعه فى قول العرجى:

أظلوم أن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

وأمره على توجيهه إياه بألف دينار. وكحكاية دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزى[1] الفقيه المعدل المحدث الرئيس صاحب الأموال الجزيلة

(١) نسبة إلى سجستان على غير قياس.

التى أنفق أكثرها فى العلم وأهله المتوفى عن ثلثمائة ألف دينار سنة ٣٥١، حيث بعث بمسنده إلى ابن عقدة لينظر فيه وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً وكحكاية عبد الله بن طاهر حيث رتب للقاسم بن سلام أبى عبيد فى كل شهر عشرة آلاف درهم لما وضع كتابه فى غريب الحديث وقال له أن عقلا يعين صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق أن لا يحوج لطلب المعاش. وكحكاية على بن محمد بن الفرات من أنه كان ينفق على خمسة آلاف من العلماء والعباد ويجرى عليهم نفقات كل شهر وكغير ذلك من أخبار المدح والكلمات العلمية مما يغنى تواتره المعنوى عن الإطالة به. ولذلك أيضًا كان التقريب والتبعيد والضعة والشرف على حسب الاستعداد والاستحقاق وذلك كله يستلزم كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف لما أن الناس كانوا يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم إلى الحاكة والباعة والصناع وباقى الحرف أضعافًا مضاعفة. وكان العلماء يسترزقون بعلومهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم فوق استرزاق الحاكة والخاطة أضعافا مضاعفة فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصنفت الكتب وهذبت ورتبت وبسطت واختصرت واستبحر العلم استبحاراً وذخرت أمواجه وأخذ إلى أبعد مسافة من أقطار الأرض شرقًا وغربًا حتى أن علوم الشريعة كلها من التفسير والنحو والأصول والمعانى والحديث أكثر أصحابها العجم على بعد قطرهم مع أن صاحب الشريعة عربى وكتابه عربى والمتلقون عنه وهم الصحابة عرب - ولذلك سبب أذكره استطراداً وهو أن الشريعة لما استلزمت العلم على ما مر وكان العلماء هم الملوك والأعيان وكان نفاق العلماء والاحتياج إليهم فوق نفاق الخياط والحداد والحائك والاحتياج إليه واسترزاق العلماء بعلمهم فوق استرزاق هؤلاء بحرفتهم صار العلم حرفة من الحرف على ما تقدم وقاعدة الحرف أن موجوديتها وكثرتها ومهارة أهلها يدور

مع التمدن والحضارة فكلما ازداد القطر تمدنًا وحضارة ازدادت الحرف إحكامًا ومهارة فلذلك لا تجد فى القرى من المصنوعات ما يوجد فى المدن ولا فى صغير المدن ما يوجد فى كبيرها لما أن رواج الحرف ونفاقها هو سر موجوديتها وأحكامها لأن الناس لا يضعون سلعهم حيث لا تقبل أو لا تنفق وكبر المدينة وكثرة أهلها يستلزم النفاق لاحتياج الناس واختلاف أغراضهم وهممهم احتياجًا على البدل والتناوب إلى المصنوعات واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعوروالخلو واقتضائه للنفاق لأن توزيع المجموع على المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة. ومملكة فارس والعجم كانت أكثر تمدنًا وحضارة فلذلك انتشرت العلوم فيها وأحكمت إحكامًا بليغًا إلى حد لا يوجد فى غيرها لكثر ناسها وعظم مملكتها. هذا كله فى تبيين أن العلوم كانت صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف فذلك أن الحرف والدول لها شباب وهرم ولها عمر طبيعى كأعمال الحيوانات والأمور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهى كالأمور الحسية وكنا قد قدمنا أن العلوم اقتضتها الشريعة اقتضاء وأن الصدر الأول تشايعوا على إظهار الشريعة ولوازمها وتوابعها فراج العلم والعلماء لذلك ولا شك أن الدول بعد الخلفاء الأربعة وإن كانت فوق عصرنا هذا فى الانتظام والسداد أضعافًا مضاعفة لكنها دون عصره ﷺ ويذل لذلك قوله ﷺ: «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» وقوله ﷺ فى رواية على بن الجعد عن حماد عن سعيد بن جمهان[1] عن أنس عن النبى ﷺ: «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا» وخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «إن الله عز وجل بدأ هذا

(١) جمهان كعثمان محدث من التابعين اهـ قاموس.

الأمر نبوة ورحمة وكانتا خلافة ورحمة وكانتا ملكا عضوضًا وكانت عتوًا وجبرية وفسادًا فى الأمة يستحلون الفروج والخمور والحرير وينصرون على ذلك ويرزقون أبدًا حتى يلقوا الله عز وجل» وخرجه أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب السنة بنحوه مختصرًا. ولسر هذه الأحاديث تجدد فى الدول بعده ﷺ ما لم يكن فى عصره ﷺ واستعجم الملك وتجددت فيه أحوال فارس والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحجاب ومضاعفة الحجاب ومن الوزراء والجاويشية والجوندارية وأصناف أمراء ووظائف وأسماء لم تكن فى عصره ﷺ. وحدث تخطى الحدود والتعازير وتشنيع القتل وإيقاعه بغير موجب شرعى وزالت أحوال البداوة من خوف المذمة وشدة الحياء والكرم والتبذل فى المأكل والملبس والمركب ومن اتخاذ التواضع خلقا وحدثت الحوادث وكثرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين الذين يدلون بنسبهم إليه ﷺ ونزلت سيادتهم بشريعته المستلزمة لعلوم كما تقدم فخرجت حصة من مملكة الشرق من أيدى العباسيين فى دولة بنى بويه على يد يحكم وغيره ثم زالت أيديهم عن العراق كله وخرج الحكم عنهم فيه أصلا سنة وشهورا فى أيام أرسلان البساسيرى فى حدود الخمسين والأربعمائة ثم عاد إلى أن أخرجه عنهم مطلقا واستأصلهم هولاكو بن طولى خان بن جنكيز خان وكان الصدر الأول يدبرون أفعالهم على محض الشريعة ثم جاء من بعدهم فأدخلوا فيها بالاستدلال والتمحل جملة من السياسة ثم فعلوا أمورًا سياسية وهونوها على الناس بالاعتذار ثم اتسع نطاق السياسة وأدار الملوك أحوالهم على عقولهم وأحدث جنكيز خان الياساق الذى وضعه وجعل الناس يتحاكمون إليه ويطلع إلى جبل ويزعم أنه يوحى إليه به وأكثره مخالف لشرائع الله وكتبه وإنما هو شىء اقرحه من عدن نفسه بعد الستمائة وأوحاه إلى شيطانه وكان يكتب

إيساقه فى مجلدين بخط غليظ ويحمل على بعير ويبالغ فى تعظيمه وكثرت الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضى طى بساط العلم ويفضى إلى عدم الاحتياج إليه فإن النفوس حكوية من شأنها المحاكاة فى الشر ومهما صدر شىء وزال بقى منه أثر فى النفوس وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان وهذا كله يستلزم طى بساط العلم وعدم الحاجة إليه لما أن العلوم من لوازم الشريعة وتوابعها كما قررناه وأعدناه غير مرة وإذا ضعف العمل بالملزوم وتوسهل فيه فأولى أن يضعف العمل باللازم ويتساهل فيه ولذلك لم يبق من العلم سوى رسومه ومعاهده كالمدارس القديمة وسوى ما يوجبه ناموس الإسلام من الاعتراف بحقه ظاهراً فقد اتضح عندك خروج العلوم عن كونها مظنة الاستحقاق ومطية الاسترزاق وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تباع كما يباع الفرس والحمار وهو الذى يسمونه نزولا وإعراضًا ويوصى بها كما يوصى بالقوس والدار وهو الذى يسمونه نزولاً أيضًا وتورث كما تورث الأموال يأخذها الصغار والأطفال. وأنت إذا راجعت أن كثرة الحوادث الخارجة عن الشريعة تحدث فى النفس محاكاة وأثراً واستدلالا وأن الناس على دين مليكهم وهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم وأن الملوك أسواق يحمل إليها ما ينفق فيها وأن الصنائع تدور مع النفاق وجودًا وعدمًا وأن وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بإفضاء حرفهم إلى ثمرتها أكثر من وثوق العلماء بإفضاء علمهم إلى ثمرته الدنيوية وأن إهمال الصنعة والاستغناء عنها بغيرها يوجب اضمحلالها وزوالها وما نسب لذلك مما تجده وتشاهده من إهمال المنطق والحكمة بالشام واستعماله بالروم والعجم تحققت أن العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف اللهم إلا

أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها فى أيام الملك المؤيد وينشرها فهو الذى عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقبره وإحياء معالم العلم شرعه وشعره أبقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه ما بين المشرقين.

وأما الأمر الثالث وهو كون العلوم كمالات وطاعات فهو أن الإنسان إنما ينفصل عن الحيوان بالنطق وليس المراد به الصوت المنضغط فى المجرى على مقاطع الحروف وإلا لكان الأخرس غير إنسان ولا الكلمات المنتظمة وإلا لكانت الببغاء والغراب إنسانا وإنما المراد به النفس الناطقة وهى التى تملك الطبائع القياسية وغير القياسية وتكون فلسفية وحكمية وتبحث عن العلوم النظرية ولها الاستدلال بظواهر الأمور على بواطنها ومعرفة ترتيب الموجودات فى الوجود وهذه القوة كمالها وحياتها بالعلم والبيان فتميز الإنسان بما هو إنسان بالعلم والبيان وإلا فغير الإنسان من الدواب والسباع أكثر أكلا منه وأقوى بطشًا وأكثر جماعًا وأولادًا وأطول عمرًا وإنما يتيمز عن الدواب والحيوان بعلمه وبيانه فإذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهى الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرا منهم كما قال تعالى: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» فهؤلاء هم الجهال: «ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم» وقال تعالى: «ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء» سواء كان المعنى مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب أو مثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يتيمز بها صاحبها عن سائر الحيوان. وأيضًا فالجهل من أعظم الأدواء والأمراض وقد سماه الله مرضًا فى قوله تعالى فى حق المنافقين: «فى

قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا» وقوله: «وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون» وفى قوله: «ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض» فإن المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة وكذلك أمراض القلب جميعها من الشهوة والشبهة فإن الكبر مثلا مركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم إياه ودواء هذه الأمراض كلها العلم ولذلك أكثر الغزالى رحمه الله فى ربع المهلكات من ذكر دواء العلم فى كل مرض مرض من أمراض القلوب ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور ولذلك أيضًا ترى داء الجهل متلفًا للأموال غالبًا فرب شخص يتحيل عليه بحيلة شرعية يجعلها طريقًا إلى أخذ ماله ولولا جهله بالشريعة لما تمت عليه - وأيضًا ما روى عن ابن عمر يرفعه «أفضل العبادة الفقه» وقال عمر رضى الله عنه: «موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه» وما رواه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه عن ابن عمر يرفعه «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة» وما رواه أيضًا من حديث عبد الرحمن ابن عوف يرفعه «يسير الفقه خير من كثير العبادة» قال ابن قيم الجوزية فى مفتاح دار السعادة وفى رفعها نظر وما رواه أيضًا من حديث أنس يرفعه «فقيه عند الله أفضل من ألف عابد» وهو فى الترمذى من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا قال ابن القيم وفى ثبوتهما مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم وما رواه المخلص عن ابن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن مربع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال ابن عبد الرحمن الجعفى عن عطاء بن أبى ميمونة عن أبى هريرة وأبى ذر قالا: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعًا» وما رواه الخطيب أيضًا عن أبى الدرداء أنه قال: «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة»

ومـا رواه أبو داود والتـرمـذى من حـديث أبى الدرداء رضى الله عنه قـال: «سمعت رسـول الله ﷺ يقول من سلك طريقًا يتبغى فـيه علمًا سلك الله به طريقًـا إلى الجنة وأن الملائكة تضع أجنحـتهـا رضا لطالب العلم وأن العـلام يستـغفر له من فى السـموات ومن فى الأرض حـتى الحيتـان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمـر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبيـاء لم يورثوا درهما ولا دينارًا إنمـا ورثوا العلم فمن أخـذ منه أخذ بحظ وافر» أما وضع الملائكة أجنحتـها فتواضعًا وتوقيـرًا وإكرامًا لما تحمله من ميراث النبوة لأنه طالب لما فـيه حياة العالم ونجاته ففـيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم مناسبة لأن الملائكة يحرصون على مـنافع البشر يعينونهم على أعدائهم الشياطين ويستغـفرون لمسيئهم قال الطبرانى سمـعت أبا يحيى زكريا بن يحيى السـاجى قال كـنا نمشى فى بعض الأزقـة إلى باب بعض المحدثـين بالبصـرة فأسرعنا المشى وكـان معنا رجل تاجر متهم فى دينه فقـال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تـكسروها كالمسـتهزئ فـما زال من موضـعه حتى حـفيت رجلاه وسقط وأما استغـفار من فى السموات ومن فى الأرض له فإنه لما كان ساعيًا فى نجاة العباد جـوزى من جنس عمله وجعل ما فى السموات والأرض ساعيًا فى نجـاته وقيل سبب هذا الاستغفار أن العـالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم كيـفية تناولها واستخدامها وذبحها فاسـتحق أن يستغفر له البهـائم وقوله فـضل العالم على العـابد كفـضل القمر على سـائر الكواكب مطابق لحال القـمر والكواكب فإن الـقمر يضىء الآفـاق ويمتد نوره فى أقطار العالم وهذه حـال العالم وأمـا الكوكب فنوره لا يجاوز نفـسه ومـا قرب منه وهذا حال العابد - ووجه اخـتيار القمر على الشمس وأن كـان الشمس أكثر نورًا وإضاءة أن القمر لما كان نوره مستفـادا من الشمس كان تشبيه العالم الذى

نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمـر أولى من تشبيهه بالشمس وأيضًا فنور القمر يتفاوت بتفاوت الـليالى نقصانًا وتمامًا والشمس نورا فى كل الأيام على السواء والعلماء يتفاوتون فى العلم تفاوتًا كثيرًا فـتشبيههم بالقمر أنسب لحالهم – وأما تشبـيه العماء بالنجوم فـى قوله ﷺ: «أصحابى كالنجـوم» فمن وجه آخر وله حكمة أخرى فـإن النجوم يقتدى بها فى ظلمات الـبر والبحر وتكون رجومًا للشياطين والعلماء كذلك يقتدى بهم فى ظلمات الجهل والكفر وترجم بهم الشياطين الذين يوجون إلى أوليائهم زخرف القول غرورا.

obeikandl.com